هكذا صُممت حديقة مسجد كامبريدج

كتبه إيما كلارك | 26 مايو ,2020

ليس من قبيل المصادفة أن اللون الأخضر هو لون الإسلام؛ إنه اللون الذي وُصفت به حدائق الجنة في القرآن، حيث يتكئ المؤمنون على "رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ" ويستظلون بـ"ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ". لا يعد الأخضر لون كل النباتات التي ترمز إلى النمو والخصوبة والأمل فحسب، وإنما أيضًا نقيض البني الرملي في الصحراء الجرداء. إنه لون نتوق لرؤيته لأنه يريح أعيننا حين ننظر إليه.

ولد الإسلام في الصحراء، في القرن السادس ميلادي، حيث نشأ النبي محمد ﷺ بين القبائل الصحراوية البدوية. وبقدر ما هو معروف، لم يكن تاريخ الحدائق في شبه الجزيرة العربية مماثلا للمفهوم الذي نتصوره اليوم: حيث أن شجر النخيل والمياه – الواحات – كانت تعتبر في ذلك الوقت حديقة.

"إلقاء الشعر في الحديقة"، لوحة بلاط من أوائل القرن السابع عشر من أصفهان، إيران.

لم تظهر الحدائق الإسلامية إلا عند غزو الإسلام لدول أخرى ذات حضارات خاصة بها، وخاصة بلاد فارس. استوعب الإسلام التقليد الفارسي الراسخ بالفعل بخصوص حدائق الصيد الملكية (التي تسمى pairidaeza باللغة الفارسية، والتي اشتقت منها الكلمة الإنجليزية "الجنة") وحدائق المتعة وقاموا بدمجها برؤية روحية جديدة بالكامل.

يمكن القول إن تأثير الوحي الإسلامي على الحضارتين الساسانية والأخمينية القديمة في بلاد فارس، مع أنظمة الري المتطورة التي تميزها، هو الذي أدى إلى توليف الحديقة الإسلامية في نهاية المطاف.

طعم الجنة

بدأ اهتمامي بالحدائق الإسلامية في الكلية الملكية للفنون في لندن، حيث تتلمذت على يد كيث كريتشلو الذي صمم جميع الأنماط الهندسية في مسجد كامبريدج. كان كريتشلو معروفًا بإحياء الهندسة – إحدى اللغات الرئيسية في التصميم الإسلامي – باعتبارها لغة للميتافيزيقيا المعروفة باسم "الهندسة المقدسة". في الكلية الملكية للفنون، أطلعني كريتشلو على الجمال والمعنى العميق للفن الإسلامي.

من خلال الخوض في هذا الأمر، اعتنقت الإسلام، وفي النهاية كنت محظوظة بما يكفي لجمع حبي الخاص للحدائق الإنجليزية مع هذا الحب الجديد للروحانية الإسلامية وحضارتها. في سنة 2011، اقترح علي تيموثي وينتر، المحاضر في الدراسات الإسلامية في جامعة كامبريدج، فكرة تصميم الحديقة

لمسجد كامبريدج الذي كان يجمع الأموال من أجله.

باعتبار الفاكهة عنصرا رئيسيا في حدائق الجنة، غُرست ثماني أشجار تفاح بشكل موازي لـ "أعمدة الشجر" في ردهة المسجد.

بحلول ذلك الوقت، كنت قد نشرت كتابي "فن الحدائق الإسلامية" وأكملت العديد من التصميمات للحدائق المستوحاة من الإسلام، وخاصة النوع رباعي الطيات، في أوروبا والخليج. يعتبر مسجد كامبريدج أول مسجد في أوروبا يشيد وفقًا لمبادئ صديقة للبيئة. فقد صُمم كل شيء فيه بداية من استخدام الطاقة والإضاءة وصولا إلى العناصر الهيكلية مع مراعاة الاستدامة.

كان وينتر حريصًا على إنشاء حديقة إسلامية تتناسب مع السياق الحضري لكامبردج بالإضافة إلى إثارة جو السلام والتأمل الذي تشتهر به العديد من حدائق العالم الإسلامي.

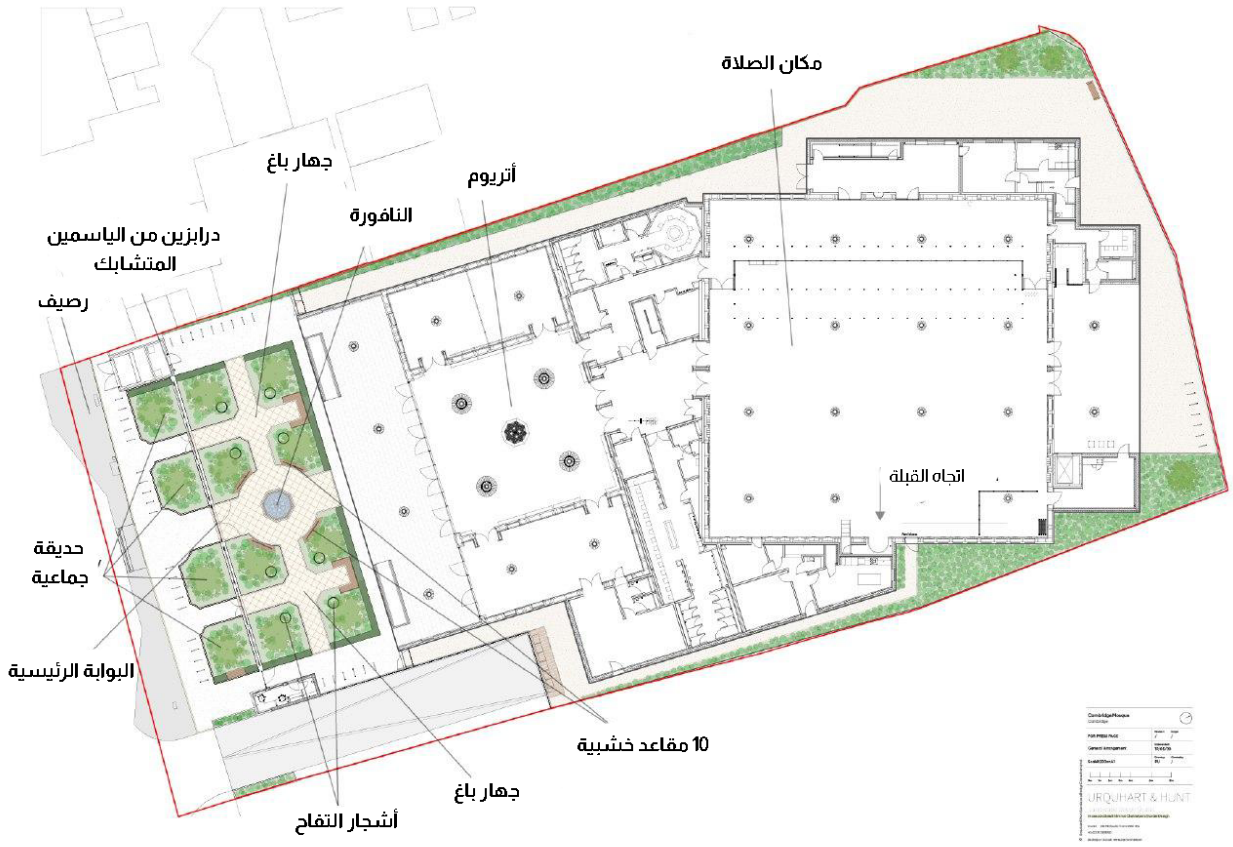

المخطط الأرضي لمسجد كامبريدج المركزي.

كانت المنطقة التي طُلب مني تصميمها صغيرة، حيث تقع بين الطريق وأرتيوم المسجد. كانت الحديقة الرئيسية الداخلية هي الحديقة الإسلامية، التي صُممت على مساحة تقارب 30 مترا على 10 أمتار. في الواقع، كان الهدف العام من هذا المكان هو إعطاء صورة قريبة من مظهر جنات الفردوس المذكورة في القرآن الكريم، وتوفير أكبر قدر ممكن من الخضرة والزرع في هذه المساحة المحدودة لخلق التوازن مع المواد "الصلبة" للمسجد والرصيف.

لم يكن الهدف الثاني مقتصرا على توفير مساحة هادئة تأملية للزوار فحسب، أين يمكنهم المشي أو الجلوس قبل دخول المسجد، وإنما أيضا لخلق تأثير رائع على الحواس مخالف لما يخلقه التلوث في الشارع والضوضاء. ثالثا، أردت وفريقي الرائع من استوديو تصميم المناظر الطبيعية "أوركوهارت أند هانت" إنشاء مكان يبدو مريحا في بيئة حضرية إنجليزية، بينما يعكس أيضا التصميم الإسلامي.

صُممت الحديقة الإسلامية الداخلية لتلائم السياق الحضري لكامبريدج وتخلق جو السلام والتأمل.

كانت هناك فرصة لنثبت للحي ولبقية كامبردج أنه من الممكن المزاوجة بين مبادئ التصميم الشرقي والمحيط الغربي بطريقة ممتعة ومتناغمة. هل توجد طريقة أفضل من هذه لتثقيف المملكة المتحدة، وهي دولة تُعرف بأمة البستانيين، حول الإسلام واعتقاده أن الجنة، دارنا السماوية، هي حديقة؟

عناصر الحديقة

هذا ليس صعبا كما قد تتخيل نظرا لأن العديد من العناصر الرئيسية للحديقة الإسلامية متوفرة عالميا. إلى حد ما، ما ينطبق على القاهرة ينطبق أيضا على كامبريدج. إن التصميم الرباعي للحديقة الإسلامية الجوهرية، أو ما يُعرف "بأربع حدائق" باللغة الفارسية، موجود في جميع أنحاء العالم بأشكال متعددة، بما في ذلك في كامبريدج نفسها.

يمكن رؤية التصميم الرباعي في الزوايا الرباعية لكليات جامعة كامبريدج.

انظر إلى الزوايا الرباعية لكليات الجامعة، أليست حدائق رباعية داخلية؟ وبالمثل، فإن أروقة الكاتدرائية في العصور الوسطى تعتمد على تخطيط مماثل، مثل العديد من حدائق المطبخ المغلقة. في الحقيقة، إن الهندسة المعمارية التقليدية في كامبريدج، التي يُعتقد أنها أوروبية في جوهرها، لديها في الواقع أصداء إسلامية عميقة.

من جهة أخرى، يُعتبر الانغلاق عنصرا رئيسيا آخر في الحديقة الإسلامية. كانت الفكرة الأصلية هي أن هذا سيصدّ الحرارة ورمال الصحراء في الخارج ويحمي الزراعة الوفيرة في الداخل، مما يخلق ملاذا هادئا وسلميا. يمكن نقل هذا المفهوم إلى السياق الحضري، حيث يكون الهدف هو تجنب الضوضاء وتلوث المدينة في الخارج أثناء رعاية واحة هادئة في الداخل.

إن فكرة الملاذ والحديقة الداخلية هي أيضا رمزية. نحن بحاجة إلى رعاية حديقتنا الداخلية، ألا وهي القلب والروح. كما كتب الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي في القرن الثالث عشر: "الحدائق والزهور الحقيقية في قلب الإنسان، وليس في الخارج". تتطلب هذه الحديقة تغذية حتى تمنحنا السكينة وتخلصنا من تفكيرنا المتواصل. في الإسلام، يتحقق ذلك من خلال الصلاة والتأمل، والأهم من ذلك كله، بذكر الله. وبالنسبة للآخرين، قد يكون ذلك من خلال التأمل وحده، الذي تنطوي على التمعن في فضاء مقدس ورعايته.

إن النموذج الأساسي لحدائق الجنة الأربع في الإسلام موصوف في القرآن، خاصة في سورة الرحمن: "وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ... وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ". هذه الحدائق الأربع هي مصدر إلهام التصميم الرباعي التقليدي للعديد من الحدائق الإسلامية حول العالم. كما يقع إعطاء هذه الحدائق أشكالا مادية، مثل التي نراها في الحدائق والساحات الخلابة لقصر الحمراء وجنة العريف في إسبانيا، وفي حدائق ضريح المغول الكبير في الهند، ولا سيما تاج محل، وحدائق إيران، مثل حديقة فين وحديقة الأربعين عمودا.

حديقة تاج محل مستوحاة من حدائق الجنة الإسلامية الأربع كما هو موصوف في القرآن الكريم.

حدائق جنة العريف في قصر الحمراء في إسبانيا.

مع ذلك، لا شك أن العنصرين الأكثر بروزا للحديقة الإسلامية هما الماء والظل. غالبا ما تشير الأوصاف في القرآن إلى النوافير والمياه الجارية. إضافة إلى ذلك، فإن أهمية المياه رمزية وكذلك مادية. تمثل مياه الجنة دائمة التدفق مصدر كل شيء حي على الأرض، فضلا عن كونها ترمز للروح، التي

تكون في بعض الأحيان هادئة مثل بركة ساكنة، وأحيانا ديناميكية كتدفق الماء السريع. بشكل أعمق، يمثل الماء في الإسلام نور المعرفة الإلهية ويعتبره المصلون هبة ونعمة من الله وعلامة على رحمته، والدليل في قوله تعالى: "وأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ".

في حدائق الجنة في القرآن، تتدفق أربعة أنهار من النوافير في وسط كل حديقة. أما في الحدائق الأرضية، غالبا ما يقع استبدال الأنهار بمسارات بسبب ندرة المياه، بالإضافة إلى صعوبة وتكلفة الصيانة. في المقابل، يعد الماء والظل أقل حيوية في كامبريدج مقارنة بالمناخات الحارة. ومع ذلك، على الرغم من الظروف المناخية الباردة، فهي لا تزال حاسمة وتساهم بشكل كبير في الهدوء العام للحديقة هناك.

كان واضحا منذ البداية أن تصميم الحديقة الإسلامية في كامبريدج ينبغي أن يضم نافورة في الوسط، حيث يسير الزوار حولها عند بوابة الدخول إلى المسجد. في الواقع، تتشعب جميع الأنماط الهندسية من مركز الدائرة، التي ترمز للعالم السماوي والوحدة الإلهية. في المقابل، يمثل المربع والرقم أربعة العالم المادي.

غالبا ما تحتوي الحديقة الإسلامية على نافورة دائرية في المنتصف، حيث تتفرع المسارات الأربعة، أو مسارات المياه، للخارج في الاتجاهات الأربع للفضاء. وهكذا يمكن القول إن الحديقة هي مكان التقاء بين السماء والأرض. في حديقتنا في كامبريدج، يتجول الزائرون حول نافورة الحجر الجيري الدائرية في طريقهم للصلاة، أو يجلسون على المقاعد للاستماع إلى صوت وحركة الماء. هنا، يمكنهم الاستمتاع بظل أشجار التفاح والنباتات في الحدائق على كلا الجانبين.

صنع "سجادة مرصعة بالجواهر النابضة بالحياة"

على جانبي النافورة إلى اليمين واليسار، أنشأنا حديقة "ذات تصميم رباعي" صغيرة، ورصفت الممرات بأحجار يوركستون ذات اللون القشدي وزُرع في أحواض الزرع مزيج من النباتات المعطرة حيثما أمكن. هناك نباتات معمرة (مثل الورود والغرنوقي والسوسن)، وشجيرات مزهرة (بما في ذلك الآس والياسمين والدفنة) ومجموعة متتالية من البصيلات بما في ذلك أنواع النرجس والتوليب. في الواقع، تمثل العطور أحد أهم خصائص الحديقة الإسلامية، ليس فقط لأنها محببة للغاية، وإنما لأنها تمتلك أيضا القدرة على استحضار الذكريات العميقة.

تقع النافورة وسط حديقة مسجد كامبريدج.

يوازن اختيار النباتات بين اللون الجريء وسط الكثير من النباتات خضراء اللون، وذلك سعيا لإحساس الشخص بالهدوء والتأمل أثناء المشي عبر سجادة مرصعة بالجواهر النابضة بالحياة. من أجل جعل هندسة الحديقة دائمة الخضرة، يخصّص سياج محيط مصنوع من نبتة الطقسوس ذات اللون الأخضر الداكن، الذي يمكن أن تبرز ألوان الزهور عليه.

اختيرت العديد من النباتات بالنظر إلى منشئها في تركيا ودول البحر الأبيض المتوسط والشرق الأقصى، وأيضا بسبب قدرتها على النمو في المملكة المتحدة. بالإضافة إلى عدد قليل من الأعشاب المختارة، وُزعت هذه النباتات بأسلوب طبيعي لتقديم رؤية معاصرة للزراعة المستدامة والصديقة للبيئة. في الواقع، لم يُتبع المبدأ التوجيهي للجمع بين التصميم الإسلامي ولوحة النباتات البريطانية المعاصرة فحسب، بل أيضًا لاختيار النباتات التي تعزز التنوع البيولوجي والتي تشجع المؤبرات.

تمثل الفاكهة عنصرا رئيسيا في حدائق الجنة، وبعد الكثير من المداولات، اخترنا شجرة تفاح مستقيمة واحدة من كل حوض زراعة من مجموع أحواض الزراعة الثمانية، ورصفناها خلف "أعمدة الشجرة" الخاصة بردهة المسجد مباشرة. تنتج شجرة التفاح هذه زهرا ربيعيا ورديا باهتا، ثم ثمرة قرمزية مشرقة ثم تتحول إلى لون الخريف القوي.

في سياق متصل، علقت مهندسة المناظر الطبيعية وأحد الأعضاء الرئيسيين في الفريق المسؤول عن الزراعة، بيترا أولريك، على الاستجابة الإيجابية المذهلة للمجتمع المحلي، ومحاولة المارة تقديم المساعدة في زراعة الحديقة.

"بلسم للقلب والعقل"

بعد مرور سنة، بدأت الحديقة في تحقيق النتيجة التي أردناها، إذ أنها حققت توازنا جميلا بين الدقة والوفرة، الذي يتناسب جيدًا مع تصميم المسجد. نأمل أن يوفر الجلوس هنا بجانب النافورة وسط الأشجار والنباتات أمام المسجد بلسما للروح وشيئًا يرفع المعنويات، مما يشجع الزوار على تعميق ارتباطهم بالعالم الطبيعي الخارجي وذواتهم الداخلية.

تمثل العطور أحد أهم خصائص الحديقة الإسلامية لأنها محببة للغاية كما أنها تمتلك القدرة على استحضار الذكريات العميقة.

قبل فترة ملازمة البيت بسبب فيروس كورونا، جاء المسلمون وغير المسلمين على حد سواء من مسافة بعيدة لزيارة المسجد. نود نحن منسقو الحدائق أن نتصور أن الحديقة تمثل جزءا أساسيا من التجربة، وذلك من خلال توفير فرصة للزائر للتريث والتوقف لحظة قبل دخول المسجد للصلاة أو ببساطة مراقبة العمارة المرتفعة الشبيهة بالأقبية في الداخل، والمعززة بأنماط هندسية معقدة.

قيل مرات عديدة إن زيارة الحدائق والمتنزهات والمشي في الطبيعة، والأفضل من ذلك، البستنة في حد ذاتها توفر الراحة والشفاء للقلب والعقل. وقد تقدم حديقة إسلامية من نوع التصميم الرباعي، بالإضافة إلى تركيزها على التأمل والذات، وإشارتها إلى حدائق الجنة، ملاذا آمنا.

في عصر فيروس كورونا، بات الكثيرون منا يتحدثون عن فَنائهم بجدية أكبر. ولكن قد يساعدنا

الجلوس في حديقة مستوحاة بوعي من الحدائق الأبدية على التفكير بتمعن بصفتها مكانا للهدوء والسلام – يجب أن نتذكر أيضًا أن السلام هو الكلمة الوحيدة المسموح بها في الحدائق السماوية.

المصدر: ميدل إيست آي

رابط المقال : https://www.noonpost.com/37133/